

الدرس السادس :

اليسير من الرياء شرك

روى ابن ماجه والحاكم في صحيحه ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، خرج يوماً فوجد معاذ بن جبل يبكي عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما يبكيك؟ فقال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اليسير من الرياء شرك ، وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمُحاربة ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا ، قلوبهم مصايح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة »^(١). (صدق رسول الله) .

هذا الحديث - أيها الأخوة - يُحذّر من الرياء ، ويحثُّ على الإخلاص ، وينوّه بالمُخلصين الذين لا يُريدون الدنيا ، ولا يرجون ما عند الناس ، وإنما يُوجّهون همّهم إلى ما عند الله عز وجل .

معنى الإخلاص :

الإخلاص هو إرادة وجه الله تعالى بالعمل ، وتصفيته من كل شوب دنيويّ ، فلا يُلَازِم عمله ما يشوبه من الرغبات العاجلة للنفس ، من إرادة مغنم ، أو منصب ، أو مال ، أو منزلة ، أو شهرة في قلوب الخلق ، أو طلب مدحهم ، والهرب من ذمّهم ، أو اتّباع هوى خفيّ ، أو غير ذلك من العِلل والشوائب ، التي عَقْدُ مُتَفَرِّقاتها هو إرادة ما سوى الله بالعمل كائنًا ما كان .

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٩) ، والطبراني في الصغير (٨٩٢) ، وفي الأوسط (٧١١٢) ، والحاكم في الإيمان (٤٤/١) ، وصححه وقال : وقد احتجا جميعا بزید بن أسلم عن أبيه عن الصحابة ، واتفقا جميعا على الاحتجاج بحديث الليث بن سعد عن عياش بن عباس القتباني ، وهذا إسناد مصري صحيح ، ولا يحفظ له علة ، ووافقه الذهبي ، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (٢٠٦/٣) ، قلت : وأما في زوائد ابن ماجه فضعه بآبٍ لهيعة مع أن الراوي عنه هو عبد الله بن وهب ، والتحقيق أنه إذا روى عنه أحد العبادلة الأربعة ، ومنهم ابن وهب فحديثه مقبول ، ويصححه كثير من المحققين . انظر : المنتقى حديث رقم (١٩) .

الإخلاص ثمرة التوحيد :

والإخلاص بهذا المعنى ثمرة من ثمار التوحيد الكامل ، الذي هو أفراد الله تعالى بالعبادة . . . لهذا قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١١٠).

ومن هنا عدَّ النبي ﷺ الرياء - وهو ضدُّ الإخلاص - من الشرك : « اليسير من الرياء شرك » ، وقال : « الرياء : الشرك الأصغر »^(١) ، وفي رواية « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ » . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : « الرياء »^(٢) .

النيَّاتُ أشدُّ على العاملين من الأعمال :

وتصفية العمل من الشوائب والرغبات الدنيوية ، ليس بالأمر الهين ، كما يظن بعض الناس ، فإنه انتصار على الأنانية وحب الذات ، وفناء عن حظوظ النفس وأغراضها العاجلة ، وهذا يحتاج إلى مجاهدة طويلة للنفس ، ومراقبة دائمة لمداخل الشيطان إليها ، وتنقية لها من عوامل الدَّغَل ، وحب الجاه والظهور ، وهي عوامل غلابة ، ذات سلطة وتأثير على النفس البشرية .

ولهذا سئل بعض الصالحين : أي شيء أشدُّ على النفس؟ فقال : الإخلاص . لأنه ليس له فيها نصيب . وقال غيره : تخليص النيَّات أشد على العاملين من جميع الأعمال^(٣) .

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٨٩/٧)، وفي مسند الشاميين (٢١٤٦)، والحاكم في الرقاق (٣٢٩/٤)، وصححه إسناده ، والبيهقي في الشعب باب إخلاص العمل (٦٨٤٤١) ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥) .

(٢) رواه أحمد (٢٣٦٣١)، وقال محققوه : إسناده صحيح ، والطبراني في الكبير (٢٥٣/٤)، والبيهقي في الشعب باب إخلاص العمل (٦٨٣١)، عن محمود بن لبيد ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٢٩٠/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥١) .

(٣) قول أيوب السخيتاني ، انظر : إحياء علوم الدين (٣٧٨/٤) .

بل بالغ بعضهم فقال : طُوبَى لِمَنْ صَحَّتْ لَهُ خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى^(١). ومن الناس مَنْ تراه فتظنه يعمل للدين بحرارة وصدق ، وأنه يعبد الله بإخلاص ، بل ربما ظن نفسه هو كذلك ، فإذا فتشت في قلبه وسبرت حقيقة نواياه ، وجدته طالب دنيا في ثوب صاحب دين ، وقد لا يكون له مطمع من وراء هذا العمل الآن ، ولكنه يأمل في الغد ، ويأمل أن تستدير له الرياح .

إنَّ الله لا يقبل القلب المدخول ولا يقبل العمل المدخول ، إنه لا يقبل العمل المُشترك ولا القلب المُشترك ، العمل المُشترك لا يقبله ، والقلب المُشترك لا يُقبل عليه ، إنه يريد القلب الخالص والعمل الخالص : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسَكِي وَنَحْيَا وَمَمَاتٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شريك له ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣) ، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (البينة: ٥) .

من دلائل الإخلاص :

إنَّ للإخلاص دلائل وعلامات كثيرة ، تظهر في حياة المُخلص وسلوكه ونظرته إلى نفسه وإلى الناس .

إن من دلائل الإخلاص :

١- مخافة الشهرة :

أن يخاف الشهرة على نفسه ودينه ، وخصوصاً إذا كان من أصحاب المواهب ، وأن يُوقن بأن القبول عند الله بالسرائر لا بالمظاهر ، وبالقلوب لا بالصُّور ، وإن إنساناً لو طبقت شهرته الآفاق وهو مدخول النية ، لم يُغْنِ عنه الناس من الله شيئاً ، وهذا ما جعل كثيراً من علماء السلف وصالحيهُم يخافون على قلوبهم من فتنة الشهرة ، وسحر الجاه والصيت ، ويحذرون من ذلك تلاميذهم ، فقد روى الإمام الغزالي من ذلك أشياء كثيرة .

(١) انظر : إحياء علوم الدين (٤/٣٧٨) .

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صدّق الله من أحب الشهرة .
وعن خالد بن معدان أنه كان إذا كثرت حلقاته قام مخافة الشهرة^(١) .
ورأى طلحة قومًا يمشون معه نحوًا من عشرة : فقال : ذباب طمع ، وفراش
نار^(٢) .

وكان أبيُّ بن كعب يمشي مرة ، وخلفه جماعة من الناس ، ورآه عمر فعلاه
بالدرة . فقال أبيُّ : انظر يا أمير المؤمنين ماذا تصنع؟ فقال عمر : إن هذه ذلة للتابع
وفتنة للمتبوع^(٣) . وهي لفقة عمرية نفسية لما قد تحدثه هذه المظاهر البسيطة في
بدايتها من عواقب وآثار بعيدة الغور في نفسية الجماهير التابعة والقادة المتبوعين .
هكذا ينبغي للمؤمن أن يحرص ، وأن يخاف على نفسه من هذا كله ، والله تعالى
لا يقبل الناس بشهرتهم ولا بجاههم ، ف«رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ،
لو أقسم على الله لأبره»^(٤) ، «إنَّ الله يحب الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حضروا لم
يعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا» .

٢- اتِّهام النفس :

إنَّ المُخلص يتَّهم نفسه دائماً بالتفريط في جنب الله ، والتقصير في أداء
الواجبات ، ولا يسيطر على قلبه الغرور بالعمل والإعجاب بالنفس ، بل هو دائماً
يخشى من سيئاته بالألا تُغفر ، ويخاف على حسناته ألا تُقبل ، وقد بكى بعض
الصالحين في مرضه بكاءً شديداً ، فقال له بعض عوَّاده : كيف تبكي؟ وأنت الذي
صمتَ وقمتَ ، وجاهدتَ وتصدَّقتَ ، وحججتَ واعتمرتَ ، وبلغتَ وذكَّرتَ ؟

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٤٦) .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين (٢٧٦/٣) .

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٨) ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٥١) .

(٤) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤) ، وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه ، والطبراني في
الأوسط (٨٦١) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد وقصر الأمل (١٠٤٨٢) ، عن أنس ، وقال في
مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبد الله بن موسى التيمي وقد وثق ، وبقي رجاله
رجال الصحيح ، غير جارية بن هرم ووثقه ابن حبان على ضعفه ، وصححه الألباني في صحيح
الترمذي (٣٠٢٨) .

فقال : وما يديرني أن شيئاً من هذا في ميزاني ، ما يديرني أن هذا مقبول عند ربي ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧) ، والتقوى في القلوب ، ما يديرني أنني من المتقين حتى تتقبل مني هذه الأعمال .

وقد سألت السيدة عائشة رسول الله ﷺ عَمَّنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أُنْهِمَ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠) ، أهم الذين يسرقون ويزنون ويشربون الخمر وهم يخافون الله عز وجل؟ فقال : « لا يا بنت أبي بكر ، يا ابنة الصديق ، ولكنه الذي يُصَلِّي ويصوم ويتصدق ويخاف الله عز وجل ، ﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَا سَبِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦١) »^(١).

ومن صفات المخلص : أن يكون العمل الصامت أحب إليه من العمل الذي يحفه ضجيج الإعلام وطينين الشهرة ، إنه يؤثر أن يكون من الجماعة كالجذر من الشجرة ، بالجذر قوامها وحياتها ، ولكنه مستور في باطن الأرض لا تراه العيون ! أو يكون كالأساس من البناء .

خفي الأساس عن العيون تواضعاً من بعد ما رفع البناء مشيداً

٣- العمل بعيداً عن الأضواء :

ومن صفات المخلص لله : أن يستوي عنده العمل قائداً والعمل جندياً . . . ما دام في كلا الأمرين خدمة دينه ، وإرضاء ربه ، فلا يستولي على قلبه حب الظهور ، وتصدر الصفوف ، والرغبة في الزعامة ، واعتلاء المراكز القيادية . . . بل ربما أثر الجندية خشية التفريط في واجبات القيادة ، وتبعات التصدر ، وعلى كل حال لا يحرص على شيء ، ولا يطلب الزعامة لنفسه ، ولكن إذا حملها حملها ، واستعان الله على القيام بحققها ، وقد وصف النبي ﷺ هذا الصنف من الناس فقال :

(١) رواه أحمد (٢٥٢٦٣) وقال مخرجه : إسناده ضعيف لانقطاعه ، عبد الرحمن بن سعيد ابن وهب الخيواني لم يدرك عائشة ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٧٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨) ، والحاكم في التفسير (٣٩٣/٢) ، وصححه إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الخوف من الله تعالى (٧٦٢) ، عن عائشة ، وعلق العراقي في تخريج الإحياء على تصحيح الحاكم فقال : بل منقطع (٧٠/٤) ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٣٧).

« طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مُغبرة قدماه ، إن كان في الساقة كان في الساقة ، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة »^(١) ، أي : حيث وضع عمل .

٤- ألا يطلب المدح من الغير ولا يغتر به :

ومن صفات المُخلص بعد ذلك : ألا يبالي برضا الناس ، إذا كان من وراء رضاهم سخط الله عز وجل ، فإنَّ الناس يختلفون أشدَّ الاختلاف في أمزجتهم وتفكيرهم وميولهم وأهدافهم . . . ولهذا يقول الشاعر :

وَمَنْ فِي النَّاسِ يُرْضِي كُلَّ نَفْسٍ وَبَيْنَ هَوَى النَّفُوسِ مَدَى بَعِيدٍ
وقال آخر :

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانا عليّ لناهما
تُرْضِي زيدا فتُغْضِبُ عَمْرًا ، وتحاول أن تكسب هذا إلى جانبك ، فيبعد ذلك عنك ، إذن فاعمل على إرضاء الله ، ولا تُبالِ بالناس ، ما دام الله معك ، ورضي الله عمَّن تمثل بقول الشاعر أبي فراس الحمداني يمدح الأمير سيف الدولة :

فليت الذي بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب
فجاء الصالحون فخطبوا به الله تعالى ، وهو أحق من يخاطب بهذا الشعر :
فليت الذي بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب
وليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
إذا صحَّ منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب^(٢)
هؤلاء الجنود المجهولون ، الأتقياء الأخفياء ، هم الذين تقوم بهم الدعوات ، وتنتصر بهم الرسالات ، وتنهض بهم الأمم .

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧) ، والطبراني في الأوسط (٢٥٩٥) ، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (١٥٩/٩) ، عن أبي هريرة .

(٢) البيت الأخير للمتنبي والآخران لأبي فراس ، وكلاهما في سيف الدولة .

هم الذين لا يَسْعَوْنَ من أجل ذواتهم، أو من أجل أهواء أنفسهم، وإنما يعملون لله ، ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (القصص: ٨٣).

كن كصاحب النقب :

انظروا إلى هذا النموذج الحيّ . . . يروي الأصمعي أنه حينما حاصر مَسْلَمَةُ ابن عبد الملك حصنًا فندب الناس إلى نقيب نقبٍ فيه . . . فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش غير معروف ولا مشهور ، فدخل هذا النقب مع ما يتعرّض له من الهلاك والموت ، دخله وهجم على الكفار وفاجأهم وفتح الباب للمسلمين ، ففتحه الله عليهم . فنادى مسلمة : أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد . فنادى : إني قد أمرت الأذن بإدخاله ساعة يأتي ، فعزمت عليه . (يعني أقسم عليه إلا جاء) ، فجاء رجل ، فقال للحاجب : استئذن لي على الأمير . فقال له : أنت صاحب النقب؟ قال : أنا أخبركم عنه ، وأدلكم عليه .

فأتى مَسْلَمَةُ وأخبره عنه ، فأذن له ، فقال له : إنَّ صاحب النقب يعرض عليكم ثلاثة شروط . . . أولها : ألاَّ تسوّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة ، والثاني : ألاَّ تأمروا له بشيء . . . لا جائزة ولا مكافأة ، والشرط الثالث : ألاَّ تسألوه مَنْ هو . قال مَسْلَمَةُ القائد : فذلك له . . . قال الرجل : أنا هو . فكان مَسْلَمَةُ لا يُصَلِّي بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلني مع صاحب النقب^(١) .

هذا هو الجندي المخلص . . . هؤلاء هم المخلصون . . . هؤلاء هم الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حَضَرُوا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا ، قلوبهم مصاييح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة . هم الذين يحبهم الله ، ويرضى عنهم . نسأل الله أن يجعلنا منهم ، وأن يجعل لنا حظا من الاقتداء بهم . . . إنه سميع قريب^(٢) .

* * *

(١) انظر : تاريخ دمشق (٣٦/٥٨) .

(٢) راجع ما ذكرناه في كتابنا : (النية والإخلاص) من سلسلة (في الطريق إلى الله) طبعة مكتبة وهبة القاهرة .